

القرآن ودوره في تزكية النفس



الاثنين 27 يونيو 2022 05:29 م

القرآن الكريم له دور كبير في علاج أمراض القلوب، وعلى رأسها مرض العُجب، وما يحدثه هذا المرض في نفس الإنسان من تعاضم واستعظام على الآخرين (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَشَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) [يونس: 57]. وطريقة القرآن في العلاج طريقة فريدة تجمع الكثير من الوسائل السابقة، وتضيف عليها ما يعين قارئه على مداومة الانتباه لنفسه، والعمل الدائم على إزالة أي تضخم في ذاته

فمن خلال القرآن:

أولاً: نتعرف على الله عز وجل:

وكما قيل من قبل فإن معرفة الله عز وجل لها دور عظيم في محو أي أثر للكبر في النفس، وهنا يأتي دور القرآن بكونه رسالة من الله عز وجل للبشر؛ يعرفهم فيها بنفسه من خلال أسمائه وصفاته، وآثار تلك الأسماء والصفات في النفس والكون، مما يورث العبد الكثير من المعرفة به سبحانه، وعلى قدر تلك المعرفة تكون عبودية القلب واتجاه مشاعره لربه ومولاه... فعلى قدر معرفة الله المنعم يكون حب العبد له سبحانه، وعلى قدر معرفة الله القيوم تكون الاستعانة والتوكل عليه، وعلى قدر معرفة الله الرحيم يكون الرجاء فيه، وعلى قدر معرفة الله الجبار يكون الخوف والحذر منه عز وجل... وهكذا

وكلما ازدادت معرفة العبد لربه ازداد شعوره بعظيم احتياجه إليه، وضآلة حجمه، وأنه لا قيمة له إلا به، ولا غنى له عنه

ثانياً: القرآن يعرفنا بأنفسنا:

قال صلى الله عليه وسلم " .. وكفى بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه "[1]. فإعجاب المرء بنفسه دليل على جهله بها وبحقيقتها، لذلك تجد الموضوع الرئيسي في القرآن بعد التعريف بالله هو التعريف بالإنسان وبأصله وحقيقته من ضعف وجهل، وعجز، واحتياج دائم إلى ما يصلحه ويقمه

ويعرفنا القرآن كذلك بطبيعة النفس وأنها أمارة بالسوء... لديها قابلية للفجور والطغيان... تحب الاستئثار بكل خير لا تنظر للعواقب

ثالثاً: القرآن يشعرننا بضآلة ما نقدمه من أعمال:

من خلال عرضه الدائم لعبادة الكون وما فيه من مخلوقات لله عز وجل، كقوله تعالى: (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَوْنَ) [فصلت: 38]. وقوله: (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَمْتُرُونَ) [الأنبياء: 20].

رابعاً: القرآن يحذرنا من عاقبة العُجب والكبر والغرور:

ويعرض الكثير من نماذج الذين استسلموا لهذه الأمراض فأهلكتهم؛ كإيليس، وقارون، وفرعون، وصاحب الجنتين

خامساً: القرآن يقدم صفات العلاج لأهل الكبر والغرور والإعجاب بالنفس:

فعلى سبيل المثال: خطاب القرآن لليهود، وتذكيرهم بما فعلوه، يحمل في طياته أيضاً وصفة علاج لهم، إذا ما أرادوا الشفاء مما هم فيه، ومن ذلك مطالبتهم بذكر نعم ربهم عليهم ليكفوا عن طغيانهم (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلَيَّ مَصَلَّتْكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) [البقرة: 122]. ومع ذكر النعم، عليهم كذلك تذكر الآخرة وما فيها من أهوال (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ). والقرآن يكشف لهم زيف ادعائهم، ويضع أنفسهم أمام اختبار قاس من شأنه أن يزيل أوهامهم (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا مَوْتَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [الجمعة: 6]. قال صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لا يقولها رجل منهم إلا غص بريقه "[2] يعني يموت مكانه

سادساً: القرآن يبين لقارئه كيف ربي الله رسله وأنبياهه وعباده الصالحين:

رباهم على العبودية والإخلاص له سبحانه، وعلى أنهم بالله لا بأنفسهم...
فبِكَلِمَةٍ قَالَهَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبِثَ فِي السِّجْنِ بضع سنين (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بضع سنين) [يوسف: 42].
وبعد الإسراء والمعراج، وبلوغ الرسول صلى الله عليه وسلم بحقيقته، وأنه بالله لا بنفسه (وَلَئِنْ سَأَلْنَا لَنَدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَقِيلَ * إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) [الإسراء: 86].
وأن ثباته أمام المشركين من عند الله (وَلَوْ لَا أَن تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرْكَنُوْنَ إِلَيْهِمْ شِئْنًا قَلِيلًا) [الإسراء: 74].
وتحذره من الشرك وصوره (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَقْعُودًا مَّخْذُولًا) [الإسراء: 22].
ومع الصحابة رضوان الله عليهم نجد القرآن يذكرهم بعد كل نصر حققوه على المشركين بأن الذي انتصر هو الله، وما هم إلا ستار لقدرته، فبعد غزوة بدر (فَلَمَّ تَقَاتَلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) [الأنفال: 17].
وبعد الأحزاب (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا حَيْزًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا) [الأحزاب: 25].
وبعد بني النضير (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَن يَحْرَجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) [الحشر: 2].
وهكذا نجد القرآن يعطي مساحة كبيرة لهذا الموضوع لنحتذي به في تربيتنا لأنفسنا

سابعاً: القرآن يحمو مواضع الضعف والنقص (المتوهمة) من داخل الإنسان:

وذلك من خلال تعريفه بمكانته في هذا الكون وأنه هو قائده، وكذلك من خلال مخاطبته لعقله، واستثارة كوامنه، مما يشعره بقيمة ما حياه الله به من إمكانيات وقدرات

ثامناً: القرآن يذكر قارئه دوماً بالله عز وجل بقدره وعظمته وجلاله، ويذكره كذلك بنفسه وصفاته:

من خلال تكرار تلك المعاني في كثير من السور... هذا التكرار له دور كبير في ترسيخ تلك المعاني في منطقة اللاشعور، أو اليقين داخل الإنسان، مما يعيد تشكيل أفكاره وتصوراته، ومن ثم سلوكه وأفعاله التلقائية (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) [طه: 113].

تاسعاً: القرآن وزيادة الإيمان:

ومع أهمية دور القرآن في التذكير والتوجيه، إلا أن هذا كله لا يكفي لدفع المرء للقيام بمقتضيات ذلك التوجيه، بل لابد من وجود قوة دافعة تستثير همته وإرادته للقيام بمقتضى هذا التوجيه... وهنا يأتي الدور الخطير للقرآن والذي يتمثل في قدرته على التأثير في مشاعر قارئه واستثارتها بمواعظه البليغة، وقوة سلطان ألفاظه على النفس، مما يزيد الإيمان، ويولد الطاقة الدافعة للقيام بأعمال البر المختلفة بسهولة ويسر (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) [الإسراء: 107، 109].
من هنا تتضح لنا أهمية القرآن في استقامة العبد على أمر الله، وتجليبه الدائم بجلباب العبودية له

لماذا لا ينفعنا القرآن؟:

قد يقول قائل: ولكننا نقرأ منذ زمن بعيد، وختمناه عشرات المرات، ولكننا لا نشعر من خلاله بأي تغيير يحدث داخلنا... نعم، هذا هو حالنا مع القرآن، ومما لا شك فيه أن القرآن لم يفقد مفعوله وقوة تأثيره (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمْتَالُ تُضَارِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [الحشر: 21].

إن المشكلة فينا نحن لا في القرآن، والسبب الرئيسي لذلك أننا لا نتعامل معه على حقيقته كأعظم معجزة نزلت من السماء، وأن السر الأعظم لهذه المعجزة يكمن في قدرته على التأثير في نفس قارئه، وتغييره من أي حال يكون فيها إلى الحال التي ترضي الله عز وجل

لكننا قد اعتدنا على أن تكون علاقتنا مع القرآن علاقة البحث عن الأجر المترتب على القراءة فقط، دون النظر إلى الانتفاع الحقيقي به، فنقرؤه ونحن غافلون عن مراد خطابه، حتى أننا لا نتعامل معه مثل ما نتعامل مع الجريدة التي نفهم ما نقرؤه منها!! فكيف لنا إذن أن نتأثر به ونحن قد هجرناه، وهجرنا الانتفاع بمعجزته؟!

كيف ننتفع بالقرآن؟!

فإن كنا نريد الانتفاع بالقرآن، واستخدامه كعلاج فعال لما نعاني منه من أدواء، فعلياً أن نغير طريقة تعاملنا معه، وأن يكون همنا من قراءته الانتفاع بمعجزته والدخول في دائرة تأثيره، وهذا يحتاج منا إلى بعض الوسائل العملية المتدرجة التي تعيننا على العودة الهادئة للقرآن، وإدارة وجوهنا له، والإقبال على مآذبه...

[1] رواه الطبراني عن عبد الله بن عمرو

[2] رواه البيهقي في دلائل النبوة - انظر الشفا للقاضي عياض 1/207.